إيران ومشروع الدولة الإقليمية العظمى

الكاتب : نبيل العتوم

التاريخ : 8 سبتمبر 2015 م

المشاهدات : 5702

برز الاتفاق النووى الذى وقعته إيران مع القوى العظمى، ليرسم مقاربة جديدة قائمة على فرضية أن خارطة التوازنات فى المنطقة قد تبدلت وتغيرت إلى غير رجعة، حيث تصدح سمفونية الإعلام الإيراني ليل نهار، بأن ساعة الحسم قد دقت وبأن طهران باتت تتربّع على عرش الشرق الأوسط دون منازع، كونها القوة التي باتت الأكثر تأثيراً ونفوذاً وهيمنة على مستوى الإقليم.

تعتبر طهران أن الإنجاز الذي تحقق اليوم لم يكن بالحصاد السهل على الإطلاق، فقد بذلت في سبيل تحقيقه الغالي والنفيس، وتحملت فى سبيله الحظر والعقوبات الاقتصادية، وحملات التشويه، لكنها في النهاية نجحت في مواجهة كل أدوات الهيمنة الغربية، سواء الناعمة منها، أو الخشنة؛ بل إن ما وصلت إليه ايران –على حد تعبيرها– كان أشبه بالمعجزة، فى ظل الظروف الصعبة التى أحاطت بها منذ قيام الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٩، لكنها نجحت أخيراً في أن تسير بالبلاد والمنطقة نحو واقع جديد.

نعم، يحق للعالم العربي، الذي يُعايش التخريب الإيراني للأمن الإقليمي ليل نهار أن يقلق من هذا التحول الحاصل لصالح إيران، ومن زيادة احتمالات دولة الملالي المتزايد بالتوجه نحو عسكرة برنامجها النووي، وأن تزيد من وتيرة سعي إيران المستميت الحصول على القنبلة النووية، وبأي ثمن، وعلى حساب أي سياسة ووسيلة كانت.

لا شك بأن إيران قد وصلت إلى ما وصلت إليه بالوسائل غير المشروعة، وهنا ينبغى الالتفات إلى أن تحصيل الدول للنفوذ، يكون مشروعاً عندما تكون الوسائل مشروعة، وتعتمد على العلاقات الطبيعية، لكن المثال الإيراني يختلف تماماً، فهي دولة مدانة بكل المقاييس، خاصة عندما تكون الوسائل والطرق التي تنتهجها غير مشروعة، بل غير أخلاقية، كإشعال الحروب، الفتن، الفوضى، التوسل بالنزاعات المذهبية، والتحريض الطائفي والقتل على امتداد الإقليم.

بدايةً حاولت إيران استغلال توظيف ما اصطلح على تسميته "الربيع العربي" لصالح مشروعها التوسعي، وسعت لدعم سيناريو مشروع التقسيم المراد للمنطقة على أسس طائفية وإثنية وعرقية ومذهبية، تمهيداً لشرعنة توسعها في المنطقة، والثانية أسهمت السياسة التي انتهجتها إيران بالحفاظ على أمن إسرائيل، بسبب سلوكها التدخلي في العراق وسوريا ولبنان، ومن هنا يمكن الحديث عن زمن صعود نجم إيران الذي أفرزته لعبة طهران في المنطقة فمحور الممانعة الذي تتسيده طهران

استطاع فيه ولي الفقيه أن يكون أداة طيعة بيد واشنطن، وأن يراكم ويبدع في نشر الدمار والقتل والتخريب والفوضى المسماة في أروقته «خلاقة» وتحديداً في دول الطوق التي استنزفت خلالها واستهدفت المؤسسات العسكرية، ودُمرت الموارد والمقدرات والبنى التحية بأدواتٍ إيرانية، ومن خلال وكلائها وبتمويلها، بحيث لم تخسر أمريكا وإسرائيل فيها لا جندي ولا حتى دولارٌ واحد، وكل ذلك خدم الكيان الصهيوني، وحقق ضماناً لأمنه وبقائه بعيداً عن حروب المنطقة، بدوره الإيراني وبالرغم من فشله المتكرر في تحقيق ما تصدر له من مهمات، وما تعرضت له أدواته من هزائم متتالية، وبعد فشل مشروعه في لبنان، اليمن، العراق، وحتى سوريا التي باتت مستنقعاً غار فيه الإيراني حتى أذنيه، إلا أنه حجز مقعده في هذه اللعبة، وتم إشراكه في الحراك السياسي الحاصل، والمثير أن يكون شريكاً في التحالف الدولي لمواجهة الإرهاب.

من المناسب التذكير هنا بأن طهران لم ولن تحرك يوماً جيوشها أو أساطيلها لمواجهة الشيطانين أمريكا أو إسرائيل، بل تركت هذا المهمة لوكلائها القاصرين في المنطقة، وبالمقابل اجتهدت وناضلت مسلحة بمبادئ تصدير ثورتها " الإسلامية "، وعملت من خلال جهدها الدؤوب، وبعزيمة راسخة لاستهداف دول الإقليم العربية وشعوبها في أمنها واستقرارها، فلم تنج دولة من الخطر الإيراني وويلاته.

صحيح أن دولة الملالي رفضت أن تكون وكيلة للغرب فى المنطقة بشكل معلن كما كان الشاه المخلوع، ولم تبحث طهران عن نفوذ تحققه لها القواعد العسكرية الأمريكية، بل لجأت إلى بناء قوات مسلحة، وحرس ثوري، وخلايا نائمة، مدججة بالهذيان المهدوي، وبالفكر التوسعي على أسس مذهبية خيالية مقيته، وأرسلت قواتها وخلاياها بدءاً من العراق، مروراً بسوريا، البحرين، الكويت، السعودية... والحبل على الجرار حتى تعيث خراباً وتفجيراً وقتلاً، فشغلت الأمة العربية، واستنزفت إمكاناتها وقدراتها، وتوجيه مواردها باتجاه الخطر الإسرائيلي والقضية الفلسطينية.

كذلك توسلت إيران بخطاب الكراهية والمذهبية ليكون مطيّتها للنفوذ فى الدول، وسلكت النهج التحريضي ضد الشعوب ومكوناتها الإثنية والمذهبية، وحققت نفوذها بفعل ضعف البناء الاجتماعي والأمني العربي، ومن خلال توظيف استخدام القضية الفلسطينية، ونصرة المستضعفين والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، ومقارعة المستكبرين، كشعارات فارغة مقيته لخداع بعض القطاعات الشعبية العربية.

ونحن نقول لمن انطلت عليه عملية الخداع الإيراني، أن دولة الملالي لم تقدم على الصعيد الداخلي نموذجاً فريداً من الوحدة الداخلية لتكون نموذجاً للديمقراطية الدينية، من خلال إقامة حكومة شعبية قائمة على القيم الدينية، يحق للمواطن فيها أن يقترع وينتخب ممثليه فى الدولة والبرلمان، والمشاركة فى تقرير مصير البلاد، بشكل حر ومسؤول بحيث تكون ملهماً للحكومات والشعوب العربية، بل كانت مثالاً صارخاً للدكتاتورية الدينية المبنية على فكرتي الخرافة والتوسع، على حساب حقوق الإنسان، وانتهاكات حرية الشعب الإيراني بمكوناته، وخارطته الديموغرافية والدينية، حيث مارست انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان من زج لرموز المعارضة في غياهب السجون، وممارسة التمييز العنصري والمذهبي، واستهداف مواطنيها، بشكل تصدرت فيه إيران عن جدارة لقب أكثر دولة في العالم تنفذ عمليات إعدام على المستوى الدولي.

خارجياً؛ لاشك بأن إيران تُحاول تعظيم دورها الإقليمي من خلال المزيد من التأثير والتعاظم، خاصة مستغلة "الهوسة" الدولية لمكافحة الإرهاب، وأن تستعرض نفسها كشريك في الحفاظ على الاستقرار الإقليمي والدولي، ومحاولة استغلال فكرة خطيرة تروج لها مراكز التفكير الأمريكية، ومفادها أن الولايات المتحدة لن تستطيع القيام بعمليات برية ضد تنظيم داعش، بدون الدور الإيراني الفاعل، ولهذا توصي مخازن التفكير في واشنطن إدارة أوباما، بضرورة أن يكون لإيران دور مهم مستقبلاً فى قيادة القتال ضد التنظيم، وترى أهمية تخفيف العقوبات الاقتصادية وسياسة الحظر على تصدير الأسلحة التي

قد تؤثر بشكل كبير على قوة إيران العسكرية لمجابهة الإرهاب؛ مما سيُمهد هذا الطريق إلى أن تصبح إيران شريكاً فاعلاً ومؤثراً في مكافحة الإرهاب، وأن تلعب دوراً قيادياً فى الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط، لهذا توصي بعض مراكز التفكير الأميركية برفع مستوى التعاون الغربي مع طهران لتحقيق النصر على الإرهاب.

أمام كل ذلك، وبعد إنجاز الاتفاق النووي، وما تلاه من توحد جميع الإرادات الدولية والإقليمية تحت عنوان أوحد خلال المرحلة القادمة «مواجهة الإرهاب»، من هنا يمكن فهم الحديث وبدء التوافق على تسوية شاملة أساسها القبول بأن تكون إيران دولة إقليمية كبرى، بحيث لا حرب فيها إلا على الإرهاب، ومن خلال القناعة التامة بالدور المحوري لإيران لمواجهته، ونسوا هؤلاء جميعاً أن دولة الملالي كانت وما زالت منبع الإرهاب ومصدره الأساس في المنطقة.

مركز أميه للبحوث والدراسات الاستراتيجية

المصادر: